المصطلح الصوفي بين القصد والاعتباط (اصطلاحات الصوفية) للقاشاني (ت730هـ) أنموذجًا

م.م علي غازي محمد كلية التربية/ جامعة ميسان
alighazi@uomisan.edu.iq

الملخص:

يتناول هذا البحث دراسة المصلح الصوفي بين القصد والاعتباط للقاشاني- رحمه الله- فكان القاشاني متصوفًا عارفًا بمراد المتصوفة ومن يريدون من قولهم موضحًا له، فتناول البحث نشأة المعجم الصوفي وتطور دلالاته ومحاولة الربط بين المحدثين والقدماء في هذا المجال، ثم تناول البحث الدلالة لغًة واصطلاحًا، ثم القصدية وتوضيحها، ثم القاشاني حياته، ومؤلفاته، ومنهجه، والتطور الدلالي للكلمة...الخ. أما أهم النتائج في هذا البحث فهي:

1-المصطلح الصوفي مصطلح خاص بأهله يختلف باختلاف سعة التجربة الروحية للعارف.

2-تستمد المعاجم الصوفية دلالات ألفاظها من مصادر متنوعة وأهما المعاني القرآنية، وربما كانت الطبيعة والحروف والأعداد توظف بوصفها مصطلحا صوفيا خالصا.

3-تتميز المعاجم الصوفية بالمصطلح المركب وأعني به المصطلح الذي يتركب من كلمتين مثل (عبد + اسم من الأسماء الحسنى).

الكلمات المفتاحية: الصوفية، المصطلح، الاعتباطية، الدلالة، القصدية، الروحية.

The Sufi Term between Motivation and Arbitrariness: Al-Qashani's Istilahat al-Sufiyya (d. 730 AH) as a Model

M.M. Ali Ghazi Mohammed
College of Education \University of Maysan

Abstract:
This research examines the Sufi terminology of al-Qashani (may God have mercy on him), exploring the interplay between intentionality and arbitrariness. Al-Qashani was a Sufi scholar well-versed in the intentions of Sufis and their intended meanings, clarifying them for his audience. The research explores the origins of the Sufi lexicon, the evolution of its meanings, and attempts to connect modern and classical scholars in this field. It then examines the linguistic and technical definitions of terms, followed by an explanation of intentionality. Finally, it delves into al-Qashani's life, works, methodology, and the semantic development of the term, among other topics. The most important findings of this research are:
1- Sufi terminology is specific to its adherents and varies according to the breadth of the mystic's spiritual experience.

2- Sufi lexicons derive their meanings from diverse sources, most importantly Quranic meanings. Nature, letters, and numbers may also be employed as purely Sufi terminology.
3- Sufi lexicons are characterized by compound terms, specifically those composed of two words, such as "servant" and "one of the Beautiful Names of God."
Keywords: Sufism, terminology, arbitrariness, meaning, intentionality, spirituality.

مقدمة:

البحث عن المعنى والدلالة في النصوص الصوفية يعد مغامرة في حد ذاته، فالتصوف يبحث عن المعنى ويسعى اليه ويطمح بالوصول إلى الحقيقة في سيره نحو الحق، فكيف إذا كان الكلام يقع في صناعة معجم صوفي لحصر المعاني التي تتجاوز الخيال، وهو ما نذر له بعض الأعلام- ومنهم القاشاني- أقلامهم، فقد كان القاشاني عارفا بكلام المتصوفة شارحا له وهو الذي شرح أمات كتب التصوف كمنازل السائرين والفتوحات المكية، وشرح التائية الكبرى لابن الفارض، وله ثلاثة معاجم مطبوعة (لطائف الإعلام في إشارات أهل الالهام، ورشح الزلال، واصطلاحات الصوفية.

وبشكل عام فإن لغة التصوف لغة خاصة بين أهلها، واللفظ لا يسعها بل يقربها؛ لأن التجربة الصوفية تجربة فردية تختلف من شخص لآخر، وتتسع وتضيق بقدر معرفة السالك وقربه، وربما ضاقت عنها العبارة كما يقول النفّري: «كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة». وربما كانت المصطلحات خاصة بعارف دون آخر وهذا يوسع دائرة المصطلح الصوفي (القاشاني، 1370ه، 9).

تحاول هذه الورقة الوقوف على الدلالة المعجمية وما يطرأ عليها من تطور وتغير دلالي وطبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى للكلمة في الاستعمال الصوفي.

وقد تمَّ تقسيم البحث على تمهيدٍ مختصرٍ للموضوع، ثم مبحثين اثنين: فأشرت في الأول إلى معنى الدلالة لغة واصلاحا ثم مفهوم الدلالة في الدراسات الغربية والعربية بشكل مختصر ثم الدلالة المعجمية، وبعدها شيء عن حياة القاشاني ومؤلفاته، فيما أشار المبحث الآخر إلى نماذج من المصطلحات الدلالية ودلالاتها، ثم خاتمة بأهم النتائج.

التمهيد:

يُعَدُّ التصوف الإسلامي من أبرز الحقول المعرفية التي أسهمت في إثراء الثقافة العربية والإسلامية، لما انطوى عليه من أبعاد روحية وفكرية ولغوية متشابكة، وقد أفرز هذا الحقل عبر تطوره التاريخي منظومةً واسعةً من المصطلحات الخاصة التي عبّرت عن التجارب الوجدانية والأحوال والمقامات الصوفية. ولم تكن هذه المصطلحات وليدة الاستعمال العابر، بل تشكّلت ضمن سياقات معرفية ودلالية دقيقة، حتى غدت لغةً مخصوصة بأهل التصوف، تحتاج إلى التأويل والفهم العميق للكشف عن مراميها ودلالاتها.

ومن بين العلماء الذين أسهموا في ضبط المصطلح الصوفي وبيان معانيه يأتي أبو الغنائم عبد الرزاق القاشاني المتوفى سنة 730هـ، الذي عُرف بعنايته بالمصطلحات الصوفية وحرصه على تفسيرها وتقريبها إلى المتلقي، ولا سيما في كتابه «اصطلاحات الصوفية»، الذي يُعد من أهم المعاجم الصوفية في التراث الإسلامي. وقد امتازت اصطلاحاته بالجمع بين البعد

اللغوي والبعد الإشاري العرفاني، الأمر الذي جعلها مادةً خصبةً للدراسة والتحليل.

وتنبع أهمية دراسة مصطلحي «القصد» و«الاعتباط» من كونهما يمثلان نموذجًا دالًا على طبيعة البناء الاصطلاحي عند القاشاني، وما يحمله من انتقال الدلالة من معناها اللغوي العام إلى معناها الصوفي الخاص. فالقصد يرتبط في التصور الصوفي بتوجّه السالك وإرادته الروحية، في حين يتصل الاعتباط بدلالات تختلف باختلاف السياق الصوفي والفلسفي، مما يفتح المجال للكشف عن آليات التوليد الدلالي للمصطلح الصوفي.

وعليه، يسعى هذا البحث إلى الوقوف على دلالات هذين المصطلحين في ضوء استعمال القاشاني لهما، وبيان أصولهما اللغوية، وتحليل تطورهما الدلالي داخل الخطاب الصوفي، مع الكشف عن العلاقة بين القصد والاعتباط في البنية المفهومية للتصوف الإسلامي.

المبحث الأول: الدلالة المعجمية:

الدلالة لغةً:

مصدر دلّ يدلُّ دِلالةً ودَلاَلَةً ودُلُولةً والفتح أجودها: تعني الهداية وما يستدل به، والدليل الدّال المرشد إلى المطلوب، دلّ: أرشد، سدّد، وجّه... فدلالة اللفظ هي هدايته إلى معناه وتوجيهه إليه. وهي بهذا المعنى لا تخرج لغةً عن إبانة الشيء وإيضاحه، والإرشاد إلى معناه والهداية البيان. فلا تختصّ باللغة فقط، وإنّما هي عامّة في كلّ ما يوصِل إلى المدلول (ابن منظور، مادة (دلل)).

الدلالة: هو المستوى الذي يتناولُ نظريةَ المعنى أو هو العلمُ الذي يدرسُ المعنى، ويُصطلَح عليه في اللغة الإنكليزية (semantics) (عمر، 1982، 11).

ومهمتُه البحثُ في معاني المفردات ومشكلاتها، فضلًا عن معاني الجمل والعبارات، فهو يدرس القوانينَ والقواعد التي تخضع لها معاني الألفاظ من حيث علاقتها بالظروف الاجتماعية والثقافية، وما يطرأُ عليها من تغيير كالتوسّع أو التضييق، ويدرس أيضًا الشروط الواجب توافرها في اللفظ حتى يكونَ قادراً على تأدية المعنى، يُزاد على ذلك دراسته فنون القول التي تؤدي إلى إيصال المعنى المطلوب (كمال بشر،1998، 13، 14).

وعرّفها الراغب بأنها «ما يتوصل به إلى معرفة الشيء، كدلالة الألفاظ على المعنى ودلالة الإشارات والرموز والكتابة والعقود في الحساب» (الاصفهاني، د. ت، دلَّ، 246). وقال الشريف الجرجاني (816هـ): أنها «كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر، والشيء الأول هو الدال والثاني المدلول» (الجرجاني، 1986، 104). وعلم الدَّلالة، يقابل ما يعرف في الفرنسية بـ: (sémantique) أو في الإنجليزية بـ(semantics)، وهو يهتم بدراسة المعنى.

وتعود بُذور البحث الدلالي القديم إلى اللغويين والنحويين بالدرجة الأولى وأقدمها في ذلك إشارات سيبويه (ت180هـ) الدَلالية إلى عَلاقة الدال بالمدلول في «باب اللفظ للمعاني»، إذ أوْلى بِنية الكلمة عنايةً بالغةً تمكّنه من التفرقة الدلاليّة بين أصناف الألفاظ، ويلحظ أيضا في تقسيمه الكلام على وفق معيارين هما التركيب والدلالة في باب «الاستقامة من الكلام والإحالة» (سيبويه، 1983، 1/ 24، 25).

وعني ابن جني (ت392هـ) بالدلالة وأشارَ إلى تعدّد دَلالات اللفظ الواحد فميّزَ بين ثلاثة أقسام من الدَلالة: اللفظية والصناعية والمعنوية. تمثّل الأولى الدلالة اللغويّة أو المعجميّة وتمثّل الثانية الدلالة الصرفيّة، على حين تمثّل الثالثة الدلالة الخفيّة المستفادة من وراء المعنى المَقصود التي تقوم على الاستدلال البياني (ابن جني، د. ت، 100/3، ومجاهد، 1985، 183. 184). واهتم ابن فارس (ت395هـ) بدَلالات الألفاظ وأسس معجمه على الدلالة الطبيعية، إذ ربطَ المعاني الجزئيّة للمادة اللغويّة بمعنىً عام يجمعها (عمر، 1982، 20، والصغير، 1988، 38). وفرّق في كتابه (الصاحبي) بين المعنى والتفسير والتأويل. فالأوّل قَصد الكلام ومُراده، والثاني تَفصيل المعنى وتَوضيحه، أمّا التأويل فآخر الأمر وعاقبته، أو بمعنى آخر هو الدَلالة المُستوحاة من ظاهر النص. كما تطرّق لدلالة المعاني على الأسماء وأنواع العلاقات الدلالية بين الألفاظ (ابن فارس، د. ت،312. 314 والصغير، 1988، 38. 39). وثمّة مَباحث دَلاليّة أخرى عُني بها اللغويون تتعلّق بالعلاقات الدلالية متناثرة في كتب النحو واللغة (زوين، 1986، 165. 171، ومجاهد، 91. 154).

وأما البلاغيون والنقاد فيدور البحث الدلالي عندهم حول (اللفظ والمعنى) من ذلك مثلا إشارات الجاحظ (ت255هـ): «ومتى دَلّ الشيء على معنىً، فقد أخبرَ عنه وإن كان صامتاً، وأشارَ إليه وإن كان ساكنًا» (الجاحظ، د. ت،1/ 81. 82). ومنها دراسة الجرجاني (ت 471هـ)، الذي ربَط المعنى بالنحو وعُني بالعَلاقات التركيبية بين الكلمات داخل الجملة والوحدة وبين الجمل في النصّ الواحد. والمعنى لديه نوعان: المباشر الذي يُستَقى من الدَلالة النحويّة للتركيب، ومعنى المعنى غير المباشر الذي يُستَقى من الدَلالة البلاغيّة للتركيب، وسمّى الأول التفسير والثاني المفَسَّر (الجرجاني،

1987، 298). وأشار إلى أهميّة الألفاظ في الإيحاء بالدَلالة، من خلال ائتلاف معانيها مع معاني ما يُجاورها في التركيب، مُجرّداً اللفظ من أية مزيةٍ خارج السياق، فبالتركيب تتمايَز الألفاظ ويوصَل إلى الدلالة (الجرجاني، 1987،32. 170).

ومن ذلك ما ورد منها لدى القرطاجني (684هـ)، إذ اعتمد على المعنى أساساً لنظريته النقدية، وأكد أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية للتغيير، وبحث في أقسام الألفاظ وأنواع الدلالات من حيث وضوحها وغموضها (القرطاجني، 1969، 14. 19. 20. 23. 24).

وأما الأصوليون فكانت لهم عنايةً خاصّةً بالدلالة (زوين، 1986، 117. 139)، وتوسّعوا وكتبوا فيها شيئاً كثيراً، توصلوا إلى نتائج وحقائق دلالية تقرب إلى ما وصلت إليها المباحث الدلالية في العصر الحديث. وقد عُنوا بالعلاقة بين اللفظ والمعنى أو الدالّ والمَدلول، فدرسوا أصل اللغة وحقيقة وجود الألفاظ، واختلاف دَلالتها الشرعية، وتتبّع تطوّرها الدلالي، كما عُنوا بالتحليل العقلي للغة، أو بما يُسمّى تفسير دَلالات الخطاب اللغوي. وجعل الأصوليون دَلالة الألفاظ على قسمين: التصوّريّة: التي ينتقل فيها المعنى إلى الذهن عند سماع اللفظ، والتصديقية: التي ينتقل فيها المعنى إلى ما يَقصدُه المتكلّم وله مِصْداق في الواقع الخارجي. فالأولى احتماليّة قابلة للتغيير تبعًا لما يُرتسم في تصوّر المتكلّم، والثانية ثابتة تبعًا لتطابق ما في تصّوره للواقع الخارجي (جمال الدين، 1405ه، 11). ويمكن القول إنّ علم الأصول وثيق الصلة بعلم الدلالة، وإن مباحث الأصوليين هي دلالية بحتة، وهم في كلّ ذلك لا يبتعدون عن مَفهوم الدَلالة لدى اللغويين، فتراهم يأتلفون مرّةً، ويختلفون أخرى.

وأما المفسّرون فالدَلالة عندهم غاية التفسير، ولذا فقد عُني بها المفسّرون. وليس ثمة فصل بين التفسير وعلوم اللغة، فالمفسر يسخر كل العلوم اللغوية وغيرها لخدمة المعنى. وتختلف مناهجهم في التفسير تبعا لتوجهاتهم. وزبدة القول إنّ البحث الدلالي لدى علماء العربية كان واضح، إلا انه كان متناثرا في كتبهم، هذا إذا استثنينا البحث الأصولي. وبدا يحبو ولم يقف على قدميه، في حين نراه وصل الذروة لدى الغربيين.

أما لدى المحدثين فلم يظهر إلا متأخرا (بالمر، 1985، 8)، حيث أصبحت قضايا الدلالة ومباحثها لدى المحدثين علماً قائماً بنفسه يُعرَف بعلم دراسة المعنى (لاينز، 1980، 9، عمر،1982، 11). وظهرت أوليّات هذا العلم في أواسط القرن التاسع عشر على يد ماكس مولر، الذي أصدر كتابين في عامي 1862 و1887، تناول فيهما الكلام والفكر، والعلاقة بين علم اللغة، والتحليل المنطقي للمعنى (عمر،22،1982). تلاه بعد ذلك اللساني الفرنسي: ميشال بريال، الذي أصدر بحثاً بعنوان (مقال في علم الدلالة) عام 1897، استعمل فيه مصطلح الدَلالة (Semantic) بعد أن اشتقّه من تراث الإغريق، وتأثّر في بحثه بالاتجاهات التاريخيّة القديمة والفصائل اللغويّة المُندثرة، فأحدث ثورةً في دراسة علم اللغة الحديث؛ لأنّه أول دراسة حديثة لتطوّر معاني الكلمات (السعران، 317. 318، وعمر،22،1982، ولوشن، 1995، 15). ثم تلاه ستيفن أولمان الذي كتب في علم الدلالة والمعاني والأسلوب (عمر،23،1982).

الدلالة المعجمية: وهي ما يُصرّح به المعجم من معان أساسية (مركزية) للألفاظ (محمد بن عزيز العزيزي السجستاني، 1963، رسالة ماجستير للطالبة: حمزة،20).

القصدية: ونقصد بها تلك العلاقة التي تربط الدال بالمدلول بحيث توحي بمعنى اللفظة وارتباطها بالصوت والبناء وحتى التركيب.
الاعتباطية: عدم وجود علاقة بين الدال والمدلول في الكلمة بحث لا تشي الأصوات أو البناء بمعنى الكلمة.

القاشاني حياته ومؤلفاته:

هو كمال الدين عبد الرزاق القاشاني أو الكاشي أو الكاشاني، لقب بجمال الدين.
وكان مهتما بشرح كتب التصوف واصطلاحات القوم فشرح التائية الكبرى لابن الفارض، توفي في (730هـ) بعد حياة مليئة السفر والتأليف والمحاضرة. ولا يعرف بالضبط سنة ولادته.
أما مؤلفاته فأهمها:

1. كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدر.
2. اصطلاحات الصوفية.
3. شرح منازل السائرين.
4. شرح فصوص الحكم لابن عربي.
5. تأويلات القرآن. وقد طبع باسم وهمًا تفسر ابن عربي.
6. لطائف الاعلام في اشارات اهل الالهام.
7. رشح الزلال في شرح الالفاظ المتداولة بين أرباب الاذواق والاحوال.
8. السراج الوهاج وهو كتاب تفسير وربما كان التأويلات نفسه.
9. رسالة في القضاء والقدر

منهج القاشاني في المعجم:

1-ترتيب المعجم ترتيب ابجدي.

2-لا يدعي انه المعنى الوحيد للفظ، فربما ذكر له أكثر من معنى ورأي.

3-بيان علة التسمية في كثير من الأحيان.

4-الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف للاستدلال على معنى ما أو تعزيزه.

5-تنوع مصادر المصطلح الصوفي عند القاشاني بين القرآن والحديث والفلسفة والنحو والمنطق والحروف.

المبحث الثاني: التطور الدلالي للكلمة:

أكثر المصطلحات الصوفية إشارات إلى المعنى وليست كشفًا مباشرًا، فالدلالة الصوفية تسبغ عليها معاني جديدة، لم تكن موجودة في معجمات اللغة لكنها ترتبط في ظل من ظلال المعنى أو بوجه استعاري أو كنائي أو رمزي، وهذا ما سيتضح من خلال الأمثلة، فالحرف يحظى بمنزلة ينالها باستحقاق المرتبة أو الترتيب الوضعي كالترتيب الهجائي والترتيب الأبجدي. فالحروف في تعبيرهم: «هي الحقايق البسيطة من الاعيان ومن الموجودات الحاجبية كالعقل والنفس» (القاشاني، 1370ه، 57).

من ذلك مثلا الالف:

يقول القاشاني: «إشارة يشار بها إلى الذات الأحدية أي الحق من حيث هو أول الأشياء في أزل الآزال» (القاشاني، 1370ه، 24).

فالعلاقة بين الذات الأحدية والألف هي علاقة السبق والوجود، فكما أنَّ الالف أول الحروف الهجائية كذلك الذات الاحدية أول الاشياء في الأزل.

فالرابطة هنا رابطة الرتبة، والجامع بين الدلالة الحقيقية والصوفية هو الترتيب، مع أن هذا الترتيب وضعي وليس توقيفيا، ولكن المتصوفة يخلقون منه معنى (تداوليا) بين أرباب الأحوال، ويصبح هو المعنى الحقيقي للفظ ويزيح المعنى الأولي له.

وهكذا في الباء:

يقول القاشاني: «يشار بها إلى أول الموجودات الممكنة وهو المرتبة الثانية من الوجود» (القاشاني، 1370ه، 35)، فدلالة الحرف هنا دلالة تقترب من الكناية والرمز؛ لأن ترتيب الحروف الابجدية والهجائية يبدأ بالألف والباء، والالف أول لا أول قبله، وأما الباء فهو الصادر الأول وأول الموجودات بعد الالف، هي قراءة دلالية استندت إلى نظام وضعي في ترتيب الحروف.

الهاء:

قال: «اعتبار الذات بحسب الحضور والظهور والجود» (القاشاني، 1370ه، 45)، فهي دلالة معاكسة وضدية مستقاة من الهاء الضميرية النحوية التي تنطوي على معنى الغياب في الأصل؛ لأنَّ غياب العارف يعني حضور الحق وهو الاصل الذي تبحث عنه نفس العارف.

الواو:

«هو الوجه المطلق في الكل» (القاشاني، 1370ه، 47).

وليس من السهل البحث عن ارتباط بين الوجه المطلق من الكل والواو إلا أن نقول إنه مبدوء بالواو. فثمة خيط ضعيف بين الدال والمدلول.

وللصوفية علاقة وثيقة بالحروف ولهم في ذلك كتب ومؤلفات، فهم حروفيون في كتاباتهم ويكفي أن نطلع على طواسين الحلاج أو فتوحات ابن عربي لترى الدلالات العميقة التي يضفونها على الحروف.

دلالة الأسماء:

يستقي الصوفية من كل إضافة لاسم من الأسماء الحسنى لله تعالى لكلمة عبد سمة خاصة ومميزات وهذا ما نلمسه عند القاشاني يقول في تعريف (العبادلة):

«هم أرباب التجليات الأسمائية إذا تحققوا بحقيقة اسم من أسمائه تعالى، واتصفوا بالصفة التي هي حقيقة ذلك الاسم، نُسبوا إليه بالعبودية بشهودهم له ربوبية ذلك الاسم وعبوديتهم للحق من حيث ربوبيته لهم بكمال ذلك الاسم خاصة فقيل لأحدهم عبد الرزاق وللآخر عبد العزيز وكذا عبد المنعم وغيره» (القاشاني، 1370ه، 106. 107)، فمعيار الإضافة إلى اسم ما هو مقدار اتصاف الشخص به وتجلي الاسم في صاحبه، فهي_ أي الأسماء- تختلف باختلاف التجربة الصوفية وعمقها، فالتجلي باسم (عبد الله) أعلاها وأسماها؛ لأنه «العبد الذي تجلى له الحق بجميع أسمائه فلا يكون في عباده أرفع مقاما أو أعلى شأنا منه، لتحققه باسمه الأعظم واتصافه بجميع صفاته ولهذا خص نبينا (صلى الله عليه وسلم) بهذا الاسم في قوله تعالى: «ولما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبدا»، فلم يكن هذا الاسم في الحقيقة إلا له، وللأقطاب من ورثته بتبعيته، وإن أطلق على غيره مجازا؛ لاتصاف كل اسم من أسمائه بجميعها بحكم الواحدية وأحدية جميع الأسماء» (القاشاني، 1370ه، 108).

فهنا يحدد القاشاني دلالة المصطلح (عبد الله)

فالدلالة تختلف حسب نوع الإضافة وهي تعطي معاني مختلفة باختلاف المضاف وهي تستمد روحها ودلالتها الأسماء الحسنى التي تضاف اليها، وهذا ما يمكن أن نفهمه من دلالة هذه الأسماء المركبة، فالاسم (الله) هو الاسم الجامع لجميع الصفات الجلالية والجمالية، وتجلي العبد بهذا الاسم

يحقق للعبد ما لا يحققه له أي اسم آخر لم، ولذا جعله مخصوصا في نفس النبي الأعظم؛ لأنه التجلي الأكمل للذات الالهي، والإنسان الكامل كما تسميه المدونة الصوفية.

وهذا الأمر يسري على بقية الأسماء، فدلالة كل اسم مستقاة من المضاف اليه، وبحسب صفة الاسم وهو ما يعطيه دلالة جديدة ترتبط بالمقدس تغدو مصطلحا صوفيا خاصا، وهذا لا يعني أن كل من كان اسمه عبد الله يتصف بذلك ولكنه وصف ومرتبة للعبد في سيره إلى الله، لا يمكن أن ينالها العبد الا بالمجاهدة.

ومن ذلك اسم (عبد الرحمن وعبد الرحيم) فالأول «رحمة للعالم جميعا بحيث لا يخرج أحد من رمته بحسب قابلية استعداده» (القاشاني، 1370ه، 108).

والثاني «مظهر اسم الرحيم وهو الذي يخص رحمته بمن اتقى وأصلح ورضي الله عنه وينتقم ممن غضب الله عليه» (القاشاني، 1370ه، 108).

دلالة الطير:

يمثل الوجود بكل ما فيه لدى المتصوفة كلمات الحق سبحانه، فاللغة الإلهية لا تتجلى «في الخطاب القرآني فقط، ولكنها تتجلى في الوجود كله، لان الوجود كلمات الله المسطورة في الآفاق والقران كلمات الله المسطورة في المصحف، وكما أن كلمات الله الوجودية لا يمكن حصرها ولا تنفد، قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾ (الكهف: 109)» (أبو زيد، 1999، 158. 159).

وأهم رموز الطبيعة لدى الصوفية (الماء بوجوداته المختلفة كالبحر والمنبع والسراب وغيرها، والنور وتجلياته في الشمس والبدر والظلمة، والطير والنبات وبعض الموجودات الأخرى. فالموجودات كلها دلائل وآيات على

الحق سبحانه، وهو يتجلى في كل شيء، فالعارف يرى الحق في كل شيء، ويستدل على الحق بآياته إذ في كل شيء له آية والحق لا يغيب عن العارف في كل أحواله بل تراه في استغراق تام، لا يغفل طرفة عين، يرى الحق متجليًا في مخلوقاته، فالمعجم الصوفي شامل وغير محدود وبإمكانه أن يوظف كل كلمة توظيفا عرفانيا، ويشتق منه دلالة جديدة تسبغ عليه وحسب تجربة العارف، غير أن هناك بعض الألفاظ عليها شبه اتفاق بين الصوفية على دلالتها، ومن ذلك مثلا دلالة بعض أسماء الطيور، وسنأخذ العنقاء والغراب مثلا:

العنقاء:

وهي في اصطلاح القاشاني «كناية عن الهيولى لأنها لا ترى كالعنقاء ولا توجد إلا مع صورة فهي معقولة وتسمى الهيولى الطلقة المشتركة بين الأجسام كلها وبالعنصر العظيم» (القاشاني، 1370ه، 134)، فالهيولى هي المادة التي تصنع منها الأشياء وهي كلمة يونانية، فالعلاقة بين العنقاء والهيولى علاقة رمزية كنائية كما يصرح القاشاني والجامع بينهما هو عدم إمكان الرؤية.

فالهيولى «عندهم اسم الشيء بنسبة ما يظهر فيه من الصور، فكل باطن يظهر فيه صورة يسمونه هيولى» (القاشاني، 1370ه، 46).

الغراب:

«كناية عن الجسم الكلي لكونه في غاية البعد من عالم القدس والحضرة الأحدية ولخلوه عن الادراك والنورية (سمي بالغراب الذي هو ثلة في البعد والسواد)» (القاشاني، 1370ه، 168).

فالغراب لشدة سواده وبعده يشير- كما يرى القاشاني - إلى الجسم الكلي، وهي دلالة رمزية كنائية تفتقر إلى العلاقة القوية بين الدال والمدلول، فهي دلالة اجترحها الصوفية تقترب من دائرة السيمياء منها إلى الدلالة اللغوية.

دلالة الأحجار الكريمة:

من بين الدلالات الغريبة عند الصوفية هي الرمز لبعض الأمور بالمنظور المادي لتقريبها إلى الفهم، مع التسليم بأنَّ تلك المعارف والتجارب الروحية للصوفية هي تجارب فردية تتسع وتضيق حسب عمق المعرفة والتجربة، ومن بين تلك الألفاظ توظيف الجواهر واليواقيت والزمرد وغيرها في سياق التعبير عن المعنى النادر والغريب والذي لا ينال بسهولة، وهي دلالات تنتمي إلى ميدان الرمز والكناية أقرب منها إلى الدلالة المعجمية اللغوية، فالقطيعة بين الدال والملول قائمة. ويصعب على غير أهل المعرفة - بتعبيرهم- أن يقف عليها، وسنضرب لذلك مثالا:

جواهر العلوم والأنباء والمعارف:

هي الحقائق التي لا تتبدل ولا تتغير باختلاف الشرائع والامم الازمنة كما قال الله تعالى: {شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحاً وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ} (الشورى: 13)

الزمردة: «النفس الكلية» (القاشاني، 1370ه، 55).

الياقوتة الحمراء: «هي النفس الكلية لامتزاج نورتها بظلمة التعلق بالجسم بخلاف العقل المفارق المعبر عنه بالدرة البيضاء» (القاشاني، 1370ه، 66).

الدرة البيضاء: «هي العقل الأول لقوله عليه السلام: (أول ما خلق الله درة بيضاء) الحديث، وأول ما خلق الله العقل» (القاشاني، 1370ه، 44).

فالملاحظ على هذه المصطلحات ومعانيها أنها تقترن بمدلولات بعيدة لا يعرفها الا أصحاب الاصطلاح، وليس من اليسير أن نربط بين الدال والمدلول لعمق الرابطة بينهما وبعدها، بحيث تستند إلى مرويات أو قراءة جديدة للمعنى تقترن بالرمزية، فالمصطلح الصوفي مصطلح أيقوني- إذا جاز التعبير- يعتمد اللفظ بوصفة ايقونة لمعنى واسع يختلف بين صوفي وآخر.

دلالة اللون في الموت:

قمع هوى النفس فإن حياتها به ولا تميل إلى لذاتها وشهواتها ومقتضيات الطبيعة البدنية (القاشاني، 1370ه، 91)، وقد صنفوا الموت وفق لونه إلى:

الموت الأبيض: الجوع.

الموت الأخضر: لبس المرقع من الخرق الملقاة التي لا قيمة لها.

الموت الأسود: وهو احتمال الأذى من الخلق (ينظر: القاشاني، 1370ه، 91. 93).

ويبدو أن درجة اللون وعمقه هو ما يحدد هذه التلوينات المختلفة وحسب قوتها، فالأبيض أخف وطأة وهو يتعلق بالجوع، والاخضر أغمق وأعمق ويتعلق باللباس وهو أشد من الأول لأن الأول باطن والثاني ظاهر، والثالث وهو الاسود وهو أشدها ويتعلق باحتمال أذى الخلق والصبر عليه وهو الأشد.

الخاتمة:

1-المصطلح الصوفي مصطلح خاص بأهله يختلف باختلاف سعة التجربة الروحية للعارف.

2-تختلف المعاجم الصوفية في المصطلحات وعددها وألفاظها وربما كان لكل عارف مصطلحاته الخاصة، ولا يدركها الا من ذاق تجربتهم فالمعنى اللغوي لا يسعف احيانا في التعبير عن المصطلح.

3-تستمد المعاجم الصوفية دلالات ألفاظها من مصادر متنوعة وأهمها المعاني القرآنية، وربما كانت الطبيعة والحروف والأعداد توظف بوصفها مصطلحا صوفيا خالصا.

4-الدلالة الصوفية تتنوع بين الاعتباط والقصد والإشارة أو التداول (الذي يشكل بعدًا مهما من الابعاد الدلالية في صناعة المصطلح الصوفي).

5-تتميز المعاجم الصوفية بالمصطلح المركب وأعني به المصطلح الذي يتركب من كلمتين مثل (عبد + اسم من الأسماء الحسنى).

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم
- ابن جني، أبو الفتح عثمان بن جني(392هـ). (د.ت)، الخصائص، تحقيق: محمد علي النجار وآخرون، عالم الكتب، بيروت- لبنان.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن زكريا(395هـ). (د.ت)، الصاحبي في فقه اللغة، تحقيق: السيد أحمد صقر، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة.
- ابن منظور، جمال الدين بن مكرم الأفريقي المصري(711هـ). (د.ت)، لسان العرب، ط1، دار صادر، بيروت.
- أبو زيد، نصر حامد. (1999م)، اللغة، الوجود، القرآن- دراسة في الفكر الصوفي، مجلة الكرمل، العدد الثاني والستون، شتاء.
- الأصفهاني، الراغب (502هـ). المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
- أنيس، د.إبراهيم. (1984م)، دلالة الألفاظ، ط5، مكتبة الأنجلو المصرية.
- بالمر. (1985م)، علم الدلالة، ترجمة عبد المجيد الماشطة، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، الجامعة المستنصرية.
- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بحر (255هـ) (د. ت)، البيان والتبيين، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، ط3، مؤسسة الخانجي، مطبعة السعادة، القاهرة.
- الجرجاني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي المعروف بالسيد الشريف (816هـ).(1986م)، التعريفات، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.

- الجرجاني، عبد القاهر (471هـ).(1987م)، دلائل الإعجاز، حققه وقدم له: الدكتور رضوان الداية، والدكتور فايز الداية، ط2، مكتبة سعد الدين، دمشق.
- جمال الدين، مصطفى.(1405ه)، البحث النحوي عند الأصوليين، ط2، دار الهجرة، إيران.
- جيرو، بيير. (1986م)، علم الدلالة، ترجمة: أنطوان أبو زيد، ط1، منشورات عويدات (بيردن باريس)، بيروت.
- حمزة، ذكاء عبد الستار، محمد بن عزيز العزيزي السجستاني وكتابه نزهة القلوب في تفسير غريب القرآن، (رسالة ماجستير):
- زوين. د.علي (1986م)، منهج البحث اللغوي بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار الشؤون الثقافية، بغداد.
- سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(180هـ). (1983م)، الكتاب، تحقيق: عبد السلام هارون، ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة.
- السعران، د. محمود. (د.ت)،علم اللغة- مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت.
- الصغير، الدكتور محمد حسين.(1988)، تطور البحث الدلالي دراسة في النقد البلاغي واللغوي، بغداد.
- عمر، د. أحمد مختار.(1982م)، علم الدلالة، ط1، دار العروبة للنشر والتوزيع.
- القاشاني، الشيخ كمال الدين عبد الرزاق 730ه.(1370ه. ش). اصطلاحات الصوفية، (تحقيق وتعليق: د. محمد كمال ابراهيم جعفر، مركز تحقيق التراث،ط2، انتشارات بيدار، مط: أمير، قم.

- القرطاجني، حازم (684هـ). (1969م)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.
- كاظم، د.مشكور العوادي. (1990). البحث الدلالي عند ابن سينا في ضوء علم اللغة الحديث، رسالة ماجستير، جامعة بغداد، كلية الآداب.
- لاينز، جون. (1980م)، علم الدلالة، ترجمة: مجيد عبد الحليم الماشطة، وحليم حسين فالح، وكاظم حسين باقر، مطبعة جامعة البصرة، البصرة.
- لوشن، د. نور الهدى. (1995م)، علم الدلالة دراسةً وتطبيقًا، ط1، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي.
- مجاهد، د. عبد الكريم.(1985م)، الدلالة اللغوية عند العرب، دار الضياء.